وظيفة التأثيل في الصناعة المعجمية العربية

د. أحمد عزوز(*)

يسعى البحث إلى تناول التأثيل في المعجمية العربية، ومعروف مقدار ما اهتمّ به العرب القدامى في التأليف المعجمي الشامل والمختصّ، إلاّ أنّنا لا نلفي تلك العناية دقيقة وجليَّة، ومشروعًا علميًّا عند الدارسين المحدثين.

ولعلّه من الأهمّية بمكان الإشارة في هذا المدخل إلى أسباب التركيز على المفردات في المجتمعات ولدى الشعوب. فهي بلا مريَّة مستودع أفكار ومعلومات، وحافظة عهود وعقود، ومسجّلة أحداث ووقائع وأيام.

وكلّ ذلك يدلّ على أنّ اللسان في الحقيقة هو ذلك الإنسان، في جوانبه الوجودية والروحية والعاطفية والانفعالية والاجتماعية.

كما أنّ المعجم هو وعاء الحضارات والمدنيَّات. وتُقاس اللغات بما تمتلكه من الرصيد المفرداتي الذي يشبه التوفيرَ المالي أو الذهب في البنوك، ومحلَّه من الاستثمار والتجارة والتداول بين أيدي الناس، ولذلك ليس عجيبًا أن يكون الاهتمام بهذا الاختصاص منذ القديم ولدى الشعوب المختلفة. وقد نبع اختيارنا لبحث التأثيل من أمور موضوعية عامّة وأخرى علمية خاصّة نذكر أهمّها:

أ- تعدّ صناعة المعجم العربي من أقدم الصناعات المعجمية، إذ كانت غزيرة كمًّا

(*) أستاذ بقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة وهران.

وغنية نوعًا. وهي ميدان مهمّ من ميادين اللسانيات التطبيقية؛ وتنطلق مفاهيمها في أساسها الأوّل من الرصيد المعجمي.

فكلّ معرفة لغوية مادّتها الأوّلية هي مفردات اللغة. ومن ثمّ اجتهد الأوائل من العرب بوضع معاجم متنوّعة في مختلف العصور. وكان الغرض الأسمى – الذي طمحوا إليه – هو حماية لغة القرآن الكريم من أن يقتحم حرمها دخيل لا ترضى عنه، وكذا الحفاظ على الثروة المفرداتية من الفساد؛ بَلْهَ من الضياع، فمرّ التأليف المعجمي بأطوار مختلفة فتعدّدت مدارسه وتمايزت مناهجه.

ب– كما يُعتبر العمل المعجمي العربي من أهمّ الأعمال اللغوية التي تحفظ وجه الأمّة العربية إذ كانت لها اليد الطولى، فطوت مفرداتها بين صفحاتها لتبقى خالدة على مرّ الدهور، فتسجّل مكوّنات خطاباتها المختلفة، وعاداتها وتقاليدها وكانت وعاءها الحضاري والتاريخي.

وفي ضوء هذه الأُسس والأهمّية لوظيفة المعجم في الحياة الإنسانية، نجمل إشكالية البحث في الآتي:

– هل تستطيع المعجمية العربية المعاصرة أن تُؤرخ لأصول المفردات في اللغة العربية؛ وملاحظة تطور دلالاتها، وفهم مراحل حياة المجتمع العربي؟ وكيف يتمّ لها ذلك؟ فهل بالاستعانة بالإشارات التأثيلية التي اعتمدها الدرس المعجمي القديم فقط وتدوينها؛ أم بإضافة ما يستجدّ من فلسفة ومنهجية وتقنية وما تتطلّبه حاجات العصر وضروراته ؟

ومن هنا تسعى فرضية البحث إلى تحليل التأثيل؛ انطلاقًا من الرؤية التقنية والموضوعية، والإشارة إلى الاجتهادات، وما يمكن أن تضيفه إلى الدرس المعجمي، سواء في جانبه المعرفي أو المنهجي.

١- أسباب عدم الاهتمام الكلي بالتأثيل

ومن المفيد ذكر بعض العوامل التي حالت دون العناية الكافية والشافية بمجال وموضوع التأثيل في التراث العربي، والتي يمكن إبراز منها يلي:

أ – اعتزاز المعجميين العرب بعبقرية اللسان العربي من حيث الثراء المفرداتي – وهو أمر طبيعي لدى الأمّة ، وتعدّد آليات التوليد والاشتقاق وتنوعها؛ ممّا ولّد عزوفًا عن الاهتمام بألسنة الأمم الأخرى، والقرآن يذكر:﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾ [يوسف: ٢].

ب – وقلّة الألفاظ الأعجمية في اللسان العربي إذ لم يتجاوز عددها ٢٥١٥ مفردة في المعاجم القديمة حسب إحصاء رفائيل نخلة، ويقابل هذا أكثر من ١٢٠ ألف كلمة عربية الأصل على حسب متن «تاج العروس للزبيدي»، فقُدِّرت نسبة الدخيل في اللسان العربي قديمًا بـ ٢.٠٩٪ .

ج - ولقد أرجع المعجميون الألفاظ الأعجمية الموسومة بالدخيل أو المعرّب إلى أصل عربي منطلقين من مقولة ابن جني «كلّ ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب»[١].

د – ندرة المدوَّنات اللغوية الخاصة باللغات الأجنبية.

والواقع يمكن أن نشبّه الدخيل في فكر العرب بالأعجمي أو الأجنبي الذي يلتحق بمجتمع جديد، فتُوضع له القوانين ليصبح واحدًا من أفراده، ولكن بدون تساهل؛ وهو ما يؤكّد أنّه لم يكن هناك تسامح في تلك الشروط أو القوانين، فالفرد الأجنبي يخضع للبحث والمعاشرة والتمحيص والتدقيق واحترام القوانين والشرائع والعادات والتقاليد ليلتحق بالمجتمع.

---

(١) ابن جني، أبو عثمان، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، ١/ ١١٤.

ومن هنا نقول: إذا كنا نتساهل مع هذه الكلمات الدخيلة – اليوم – حتى غدت لغتنا هجينة – في كثير من المواقف –، لا نكاد نتفاهم بها؛ بل أصبح الفصيح فيها تطرح أمامه أسئلة، لم تكن تلك الظاهرة بهذا الشكل عند العرب القدامى.

ونحسب أنّ الأمر في اللغة لا يختلف عمّا سبق، فالكلمات تحمل في طياتها التاريخ والفلسفة والمبادئ، وإذا أردت أن تغيّر من المجتمع فغيّر من مفرداته؛ لأنّ هناك علاقة بين الألسن والشعوب ولها تأثير في عقلها وسلوكها.

وإذا كان التأفّف يسري على ألسنة الناس – اليوم – من سعة حجم الدخيل في لغة الخطاب اليومي فقد كان – على قلّته – موجودًا في العصور السابقة، إذ ورد عن المتنبي – وهو يمدح عضد الدولة وولديه أبا الفوارس وأبا دلف – قوله:

مغـاني الـشِّعب طيبًـا في المغـاني ... بمنـــزلة الربيـــع مـــن الزمـــان

ولكـــن الفتـــى العـــربي فيهـــا ... غريـب الوجـه واليـد واللـسان

ملاعـــب جنّـــة لـــو ســـار فيهـــا ... ســـــليمان لـــــسار بترجمـــــان

طبـــت فرســـاننا والخيـــل حتّـــى ... خـشيت وإن كـرمن مـن الحـران[٢]

ولعلّ تميّز العرب القدامى بالحسّ التأثيلي والتاريخي للألفاظ، هو الذي أدّى بهم إلى البحث في مسار تطوّر الألفاظ والدلالات في مراحل تاريخية محدّدة، فوضعوا مصطلحات مثل الصحاح والمولد والمحدث والمعرَّب.

١ – تحديد مصطلح التأثيل

قد يصعُب تحديد مصطلح التأثيل أو الإيتيمولوجيا في صورته المعرّبة، فهو – أحيانًا – يختصّ بالبحث في أصول الكلمات، ومرّة في هذه الكلمة بعينها أو تلك

(٢) شرح ديوان المتنبي، دار الكتاب العربي لبنان، سنة: ١٩٨٦، ج:٣-٤ ، ص:٣٨٥.

من اللغة المعينة؛ حيث ورد في لسان العرب:«أثل:أثلة كلّ شيء:أصله- مال مؤثّل ومجد مؤثّل: أي مجموع ذو أصل. أثّلت الشيء: أدمته. أثّل الله ملكًا آثلاً: أي ثبّته. التأثيل:التأصيل، المؤثّل: القديم، قال امرؤ القيس:

ولكـــنّما أَسْـــعَى لِمَجْـــدٍ مُؤَثَّـــل   وقد يُدْرِكُ المجدَ المُؤَثَّلَ أَمْثَالِي[٣]

فأثّل: تعني أصّل. وعرّف معجم Le Petit Robert التأثيل بأنّه علم تناسل المفردات وتوالدها، وإعادة تكوين أصل الكلمة بالرجوع من حالته الآنية إلى أقدم حالة ممكنة كان عليها، وتؤسَّس الإيتيمولوجيا على القوانين الصوتية والدلالية[٤].

فالتأثيل «هو علم أصول الألفاظ، وهو مشتق من الأثل بمعنى الأصل، وهو على هذا الاصطلاح مقابل الكلمة الفرنسية ETYMOLOGIE».

ومفهوم التأثيلية في الدرس المعجمي يدلّ على دراسة أصول الكلمات من حيث انحدارها من لغة أمّ، أو دخولها بالاقتراض؛ أي دراسة نشأة الكلمات وتطوّرها، بُغية الوقوف على البنية الأصلية لها، والصيغ التي تفرّعت عنها صوتيًّا أو صرفيًّا أو دلاليًّا، وعلى الانتماء اللساني والحضاري للمفردة[٥].

وهذا يعني «أنّ التأثيل عملية لسانية تعتمد المقارنة بين الصيغ والدلالات لتمييز الأصول والفروع، ومن ناحية أخرى عملية تاريخية حضارية، لأنّها تستعين بدراسة المجتمعات والمؤسسات وسائر العلوم والفنون، للبتّ في القضايا اللسانية، إضافة إلى مقارنة الألسن لمعرفة أنسابها وأنماطها، لأنّ اللسان

(٣) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت.ط:١، سنة:٢٠٠٠، مادّة: (أ،ث،ل).

(٤) Voir ;Le Petit Robert,T :١ ;P :٧١٣

(٥) د.حلام الجيلالي، تقنيات التعريف بالمعاجم العربية المعاصرة، ص:٣٢٦.

الذي يكون فرعًا تكون ألفاظه فروعًا»[٦].

ويرى فندريس أنّ: «العلم الذي موضوعه دراسة المفردات يسمى الاشتقاق Etymologie، وتنحصر مهمّته في أخذ ألفاظ المعجم كلمة كلمة، وتزويد كلّ واحدة بما يشبه أن يكون بطاقة شخصية يذكر فيها من أين جاءت، ومتى وكيف صيغت، والتقلبات التي مرّت بها»[٧].

والملاحظ أنّنا لا نلمس فرقًا بين ما يذهب إليه الدارسون العرب في بحوثهم للتأثيل أو تعريفهم له، وما ورد لدى فندريس؛ ذلك أنّ مصطلح الاشتقاق الموظّف في نصّه ليس مقابلاً دقيقًا – في رأينا ممّا يجعله يلتبس على الكثير، ولكنّه قدّم لنا العملية الإجرائية في التعامل مع الكلمات المراد البحث في أصولها، وهو لا شكّ المجال الذي يلتقي مع التأثيل الذي عالجه العرب القدامى، وهو جزء من علم دراسة المفردات الذي يقابل في اللغة الأجنبية «اللكسيكوغرافيا الذي يستمدّ وجوده من علم دراسة تاريخ الكلمات وعلم الدلالة، فيهتمّ ببيان كيفية النطق بالكلمة، ومكان النبر فيها، وطريقة هجائها، وكيفية استعمالها، وبذلك فالتأثيل هو فرع من علم دراسة المفردات»[٨].

وتتجلّى طبيعة وصفة ووظيفة الاشتقاق في أنّه علم تاريخي يحدّد صيغة كلّ كلمة في أقدم عصر تسمح المعلومات التاريخية بالوصول إليه، ويدرس الطريق الذي مرّت به الكلمة مع التغيّرات التي أصابتها من جهة المعنى أو من جهة الاستعمال»[٩].

---

(٦) د.حلام الجيلالي، المرجع نفسه، ص: ٣٢٦.

(٧) فندريس، اللغة، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة،سنة:١٩٥٠، ص: ٢٢٦.

(٨) ينظر: مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٨٤، ص:١٠٤٢.

(٩) فندريس، اللغة، ص:٢٢٦.

والإيتيمولوجيا هو علم أصول الألفاظ أي نعود به إلى الأصل الممكن للكلمة، وهو مجال تعاقبي تاريخي للسانيات (يدرس أصول الكلمات)، ويرتكز على الصوتيات التاريخية (علم الأصوات التاريخي) والتطور الدلالي للمفردات المدروسة، فهو إذن يندرج ضمن الأركييولوجيا اللسانية L'archéologie (linguistique) التي تهتمّ بها كلّ اللغات التي تسجّل تطور دلالات مفرداتها عن طريق التحديث والبحث المستمر، فضلاً عن الاهتمام بعلم التأصيل.

ولتوضيح ما سبق نسوق تأثيل الفعل: «(بستر) الذي دخل المعاجم العربية المعاصرة حديثًا، فالأثل الأول هو الاسم اللاتيني (Pastor) ١٠٥٠م، وأصبح يعني سائق القطيع (Pastur) في أوربا ابتداءً من سنة ١٢٣٨م، وبمعنى خادم الكنيسة ١٥٤١م، وفي عام (١٨٢٢-١٨٩٥م) أصبح اسمًا للعالم الأحيائي الفرنسي (PASTEUR) مكتشف طريقة تعقيم السوائل والمواد الغذائية بالغليان والتبريد المفاجئ؛ ومنها اشتقّ الفعل: (Pasteuriser) سنة ١٨٧٢ ليدخل المعجم العربي في القرن العشرين كفعل رباعي معرّب: (بستر: اللبن: عقّمه على طريقة العالم الفرنسي باستور)[١٠].

وهذه الصورة التأريخية والتحليلية التي نلفيها في المثال السابق تفتقر إليها معاجمنا العربية أشدّ الافتقار، كما تنقصها دراسة التطوّر الدلالي للكلمة الواحدة من عصر إلى عصر، وهما جانبان «من وجهة النظر التاريخية» يستحقّان عناية المجامع اللغوية والهيئات والأفراد، لما يكمن وراءهما من الفائدة الكبيرة التي تعود على تاريخ حياة اللغة الفصحى[١١].

(١٠) د.حلام الجيلالي، تقنيات التعريف بالمعاجم العربية المعاصرة ،ص:٣٢٦.

(١١) ينظر د.تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، الدار البيضاء، المغرب، ص: ٣٣٣.

وإذا كان التأثيل يقترن بمصطلح الاشتقاق؛ فذلك يعود إلى منهجيته في تتبّع المفردة تاريخيًّا وتوليدها ومن أي أصل انحدرت.

أمّا الاشتقاق في اللغة العربية – كما عالجه الدارسون العرب القدامى واليوم – فهو «توليد الألفاظ بعضها من بعض ولا يكون ذلك إلاّ من بين الألفاظ التي يفترض أنّ بينها أصلاً واحدًا ترجع إليه وتتولّد منه، فهو في الألفاظ أشبه بالرابطة النسبية بين الناس»(١٢).

وقد عرّفه القدماء بأنّه: «أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقهما معنى ومادّة أصلية، وهيئة تركيب لها ليدلّ بالثانية على معنى الأصل، بزيادة مفيدة، لأجلها اختلفا حروفًا أو هيئة كضارب من ضَرَب وحَذِرٌ من حَذِر»(١٣).

٢ – التأثيل وعلم الدلالة المقارن

يربط الدارسون بين التأثيل وعلم الدلالة المقارن «الذي يهتمّ في المقام الأول بتحديد الكلمات التي توارثتها لغة الفصيلة من اللغة الأمّ، وتلك الكلمات تعرف بالنسبة للغات السامية باسم: المشترك السامي؛ وهذا المشترك يعدّ جزءًا من الكيان الأساسي للغات السامية»(١٤).

ويأتي إضافة إلى ما سبق «دور الدراسات اللغوية التي اهتمت بتحديد الكلمات الأجنبية، حيث يستعين المعجمي بها في معرفة الكلمات التي تدرج تحت كلّ قسم من القسمين الآتيين: (١٥)

أ – الكلمات الأجنبية الأصل. ب– الكلمات الأجنبية الشكل.

---

(١٢) محمد المبارك، فقه اللغة، دار الفكر، ط:٧، سنة:١٩٨١، سورية، ص:٧١.

(١٣) السيوطي، المزهر ص:٣٤٦.

(١٤) د.حازم علي كمال الدين، علم الدلالة المقارن ص: ٢٥٨.

(١٥) د.حازم علي كمال الدين، علم الدلالة المقارن، ص:٢٥٨.

وما يقوم به علم الدلالة المقارن – وهو يؤصّل للمفردات – هو تحديد جذور كثير من الكلمات تحديدًا ينبع من الواقع اللغوي الذي يتعامل معه هذا العلم، ويتّضح من ذلك أنّ عملية التأصيل تشمل جانبين هما:

أ – تأصيل الكلمة من ناحية الوطن اللغوي.

ب – تأصيل الكلمة من ناحية الجذر اللغوي(١٦).

وانطلاقًا ممّا تقدّم يمكن تعريف المعجم بأنّه الكتاب الذي يضمّ كلمات تنتمي إلى لغة واحدة أو أكثر من لغة، فتأتي مرتّبة وفق منهج معيّن، ومع كلّ كلمة دلالتها الخاصة بها، والصيغ المرتبطة بها، ويضاف إلى ذلك ضبط بنية كلّ صيغة من الصيغ؛ لتوضيح عناصرها الصوتية المكونّة لها توضيحًا يمنع من الوقوع في الخطأ عند التعامل معها في مجال القراءة والكتابة(١٧)، مع التركيز على جذورها وتأصيلها والدلالات التي حملتها في صيرورتها التاريخية، أو في مرحلة معيّنة من الزمن.

٣– أهمّية التأثيل وفائدته

يرى فندريس أنّه «من إضاعة الوقت أن نحاول البرهان على أهمّية هذا العلم (الاشتقاق)، فلم يأخذ العلماء في تأسيس الصوتيات والصرف المقارنين إلاّ بفضل ما وصل إليه الاشتقاق من نتائج، والاشتقاق والصوتيات والصرف يسند بعضها بعضًا، فما دامت القواعد التي يجري عليها تتابع الأصوات والصيغ النحوية في صورة الاشتقاق، فإنّ هذا الاشتقاق الذي يطبّقها تطبيقًا صحيحًا يقدّم لعلم اللغة أجدى المساعدات»(١٨).

---

(١٦) د.حازم علي كمال الدين، المرجع نفسه، ص:٢٥٨.

(١٧) ينظر د.حازم علي كمال الدين، علم الدلالة المقارن، ص:٢٥٧.

(١٨) فندريس، اللغة، ص:٢٢٦.

ومن هنا أولى علماء العربية الدخيلَ جُلَّ رعايتهم، لما له من علاقة وصلة بالتأثيل، فَسَعَوا يجمعون ألفاظه، ويؤصّلونها، بغية الوصول إلى الطريق التي دخلت منه، والزّمن الذي عبرت فيه إلى مجتمعهم، وذلك لفهم تأثير العوامل التاريخية والثقافية والتقاليد والعادات الاجتماعية، وأثر طرق العيش في تغيّر الدلالة، وهو الأمر الذي يفترض أن يسجّله المعجم لمعرفة هذا التغيّر.

فكان منها كتاب «المعرّب» لأبي منصور الجواليقي (ت ٥٥٠ هـ)، وبرزت في تضاعيف بعض المؤلّفات محتلّة فصولاً فيها، منها كتاب «المزهر» للسيوطي (ت٩١١هـ) الذي أفرد أبوابًا، تحدّث فيها عن الدخيل، وكيفية الاهتداء إليه، وكذلك حال ابن قتيبة (ت٢٠٩ هـ) في «أدب الكاتب»[١٩].

فعلى سبيل المثال كلمة ريشة في اللغتين العربية والفرنسية:

أ – في العربية: كانت تدلّ على ريشة الطائر، ثمّ على أداة الكتابة ثمّ على الفرشاة في الرسم، وكلمة PLUME في الفرنسية: ريشة الطائر وسيلة الكتابة مهنة الكتابة:vivre avec sa plume، وكاتب حسن الكتابة[٢٠]: homme de plume.

و«لعلّ تغيّر معنى الريشة في العربية الفصحى كان بسبب أثر الفرنسية، ويعود ذلك إلى طرق الاتصال الثقافية والحضارية»[٢١].

«والاستعمال – حسب فندريس – يخلع على كلّ كلمة قيمة محدودة دون أن يُدخل في حسابه المعنى الذي كان لها في الماضي، فالماريشال Maréchal لقب أكبر مقام في نظامنا الحربي، جاءت من خادم الإسطبل (في الألمانية القديمة، scalc –

(١٩) ينظر: محمد كشاش، مقدمة شفاء الغليل، ص:٣.

(٢٠) Le Petit Robert,T :١,p :١٤٦٢

(٢١) د.أحمد محمد قدور،مبادئ اللسانيات، دار الفكر، دمشق، ط:٢، سنة: ١٩٩٩، ص: ٣٢٨.

marach ومنها mariscalus في لاتينية القرون الوسطى)، ولذلك يرى العالم الاشتقاقي أنّ ماريشال فرنسا maréchal de France والمارشال فران Maréchal Ferrant بيطار يحملان اسمًا واحدًا»[٢٢].

وقد يكون هناك جناس تأثيلي يطلق عليه التأثيل الشعبي وهو مصطلح بيير جيرو(Pierre Guiraud)، ومعناه «اختلاط يحصل في ذهن أناس من ذوي الثقافة الضحلة فينسبون إلى الكلمة بسبب هذا أصلاً وتشكيلاً تخيّليًّا، فتتغيّر قيمتها تبعًا لهذا، ممّا يؤدّي - في بعض الأحيان - إلى تغيّر فعلي للمعنى. من ذلك كلمة (souffreteux) التي جاءت الفرنسيةَ من مصدر لاتيني (souffrancta) بمعنى مقطوع لكنّها ربطت من مسوّغ بكلمة (souffrir) بمعنى تألّم»[٢٣].

فهذا التأثيل وهذه الدلالات هي التي يركز عليها المعجم التأثيلي التأصيلي، لأنه يسجّل حياة الكلمة، ولهذا وجدنا مؤلفين يكتبون كتبًا بعناوين «حياة الكلمات» مثل دارمستتير Darmesteter.

ولعلّ من الفوائد التي نجنيها من الدراسة التأثيلية ما يلي:

- معرفة نسبة الرصيد الأثيل من المفترض في اللسان القومي.
- حفظ الرصيد الأثيل من التداخل والوقوف على درجة عجمة اللفظ.
- معرفة اللسان الذي انحدرت منه الألفاظ الأعجمية وبنيتها ودلالتها قبل اقتراضها.

٤ - تطوّر التأثيل في المعاجم العربية المعاصرة

لقد تطوّرت المعاجم العربية المعاصرة بفضل عوامل كثيرة منها: الحياة الاجتماعية والسياسية، وبسبب التطوّر العلمي والتكنولوجي والنمو الاقتصادي

(٢٢) فندريس ،اللغة، ص:٢٢٧.

(٢٣) د.أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، ص:٣٢٧.

في البلدان العربية، وبفضل المجامع والجامعات، والمؤسسات العلمية، ودور الطبع وتوسّع المدن وتطور الصحافة، والوسائل العلمية والاتصالية المختلفة والترجمة وتطوّر المناهج العلمية التي كان لها تأثير في صناعة المعاجم وترتيبها، كما أصبح الاحتكاك العلمي بين شعوب العالم أكثر من ذي قبل.

ولقد أسهمت كلّ تلك العوامل في جعل مسألة التأثيل قضية أساسية في الحياة اللغوية، وقد أشار المجمع اللغوي في القاهرة بالمادة الثانية من مرسوم إنشائه إلى: «أن يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية، وأن ينشر أبحاثًا دقيقة في تاريخ بعض الكلمات وتغيّر دلالاتها».

٥ – التمييز بين المعجم التأثيلي والمعجم التاريخي

إنّ البحث في اللغة سرعان ما فتر بحسب تراكم النظرة المعيارية التي ظهرت مع نهاية القرن الرابع الهجري، وظلّ يعتمدها بعض الدارسين لقرون تلت، والواقع لم يبعث الدرس التأثيلي والتاريخي بعد ذلك إلاّ مع نهاية القرن الثالث عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي في أوربا[٢٤]، بحيث ظهرت الدراسة التاريخية المقارنة بعد اكتشاف اللغة السنسكريتية من قبل وليام جونز١٧٨٦، وظهور فقه اللغة المقارن، وخاصة بعدما وضع فردينان دي سوسير (١٨٥٧– ١٩١٣) الفرق بين منهجين متباينين هما: المنهج الآني والمنهج التطوري التاريخي.

ويفترض أن يجد الدارس في كلّ معجم اهتمّ بالتأثيل، المعلوماتِ الاشتقاقيةَ لكل كلمة، فيلفي التواريخ التي تسبق الكلمات أو الدلالات وتناسب هذه التواريخ أول استعمال الكلمة، وتعطي صورة صادقة عن طبقات التكوين لمفردات اللغة. كما يقدم هذا الجانب التاريخي الاستعمال والاستعمالات

---

(٢٤) د.حلام الجيلالي، تقنيات التعريف في المعاجم العربية المعاصرة، ص:٣٢٥.

والدلالات المتداولة في اللغة القديمة.

وفي ضوء ذلك يمكن وضع فرق بين نوعين من البحث المعجمي هما، الدراسة التأثيلية والدراسة التاريخية ممّا يؤدّي إلى صنفين من المعاجم:

١ – المعجم التأثيلي Dictionnaire étymologique ويصطلح عليه - أيضًا - المعجم التأصيلي الاشتقاقي، وهو الذي يُركّز اهتمامه على أصول الكلمات أو ما قبل تاريخها، وعلى أصولها الحديثة، ممّا يجعله مقتصرًا على شكل الكلمة دون معناها[٢٥].

وهو المعجم الذي ظهر إثر شيوع الدراسات المقارنة في حقل الأبحاث التاريخية، ويمثّل الجانب التطبيقي لفقه اللغة المقارن، وتكون من اهتماماته – في بداية الأمر– وتركيزاته على:

أ– دراسة أصول الكلمات ومعناها في اللغات التي تنتمي إلى أسرة لغوية واحدة وتاريخها، ونسبتها إلى اللغة التي انحدرت منها.

ب – بيان اللغة أو الأسرة المصدر.

ج – دخول الكلماتِ اللغةَ مع بيان ما لحقها من تطوّر صوتي ودلالي.

د – إيضاح مشتقاتها لمعرفة ما يمكن أن يشتق منها، ومعاني هذه الصيغ وبيان العلاقات الاشتقاقية بين اللغات التي تنتمي إلى أسرة واحدة[٢٦].

هـ – بيان بنيتها من حيث النطق والشكل الكتابي والمضمون الدلالي الذي رافقها مع مرور الزمن، مع الإشارة ضمنيًّا إلى تاريخها.

وكانت نقطة البدء في المعجم التأثيلي عام ١٨٠٨م لدى الغربيين، حينما قام جون جاميسن (John jamiesen) بنشر معجم للغة الإسكتلندية، فأظهر الكلمات في

(٢٥) د.أحمد مختار عمر، صناعة المعجم الحديث،عالم الكتب،سنة:١٩٩٢، ط:٢،ص: ٥٦.

(٢٦) ينظر د.محمود السعران، علم اللغة،ص:٧٥

استعمالات متتالية مع أمثلة مقتبسة مرتبة ترتيبًا تاريخيًّا من كتّاب قدامى ومحدثين[٢٧].

وقد تتناول المعاجم التأثيلية الألفاظ الدخيلة فتبحث في أصولها، وتوقف الباحث على أصل الكلمة إن كانت عربية الأصل أو غير عربية، وتعالج أصل الدخيل حيث يذكر أمامه أصله في لغته الأصلية ومعناه وأمثلة استعمالاته[٢٨].

٢ - المعجم التاريخي (Dictionnaire historique)، وهو معجم متطور عن المعجم التأثيلي، ويمثّل الجانب التطبيقي لعلم اللغة التاريخي، الذي ظهر نتيجة إيمان اللغويين بأنّ اللغة لا تختلف عن الكائنات الحية التي تولد، وتنمو، وتشبّ، وتهرم، ثمّ تموت، ورأوا انطلاقًا من هذه الرؤية الطبيعية التطورية، ضرورة وضع معجم تاريخي يساير كلّ لفظ من لدن مولده إلى موته، فيبحث بذلك في تطور الكلمة على مرّ العصور سواء في جانب لفظها، أو معناها، أو طريقة كتابتها، ويسجّل بداية دخولها اللغة وأصولها الاشتقاقية، ويتتبع تطوّرها حتى نهاية مرحلة الدراسة أو نهاية وجود الكلمة اعتمادًا على النصوص التي وردت فيها[٢٩] ومن غاياته:

أ – معرفة التاريخ الدلالي الأولي الذي اكتسبته الكلمة.

ب – وكذلك ما طرأ عليها من تغيّر دلالي مؤرّخًا بالسنوات مع الإشارة إلى بنيتها ونسبتها[٣٠]، وهنا نستفيد من رأي فندريس في وضع بطاقة التعريف للكلمة.

ومع التداخل بين النوعين من المعاجم إلاّ أنّه يتجلّى التباين كالآتي:

(٢٧) ينظر د.أحمد مختار عمر، صناعة المعجم الحديث، ص:٥٧.

(٢٨) ينظر د.البدراوي الزهران، المعجم العربي، ص:٢٣.

(٢٩) ينظر د. أحمد مختار عمر، صناعة المعجم الحديث،ص:٥٦.

(٣٠) ينظر د.حلام الجيلالي، تقنيات التعريف في المعاجم العربية المعاصرة، ص:٣٢٥.

- إنّ الأوّل يؤكّد أصل الكلمة وبنيتها ودلالتها بالدرجة الأولى.

- أمّا الثاني فَيُلِحُّ على دلالة الكلمة وتاريخها.

- والمعجم التأثيلي الاشتقاقي يبحث في الكلمة بالنظر إلى اللغات الأخرى، والعلاقة التي تربطها بها، وكيف تحتلّ مكانتها الدلالية والتاريخية ضمنها، أمّا المعجم التاريخي فهو يتناول الكلمة وأصلها وبنيتها وغير ذلك مما له صلة بالاشتقاق في لغة معيّنة.

- فنستنتج من هذا التمييز هاتين المعادلتين:

- م/ تأثيلي = أصل + بنية + دلالة +- تاريخي

- م/ تاريخي= دلالة + تاريخ + بنية +- أصل.

فنلاحظ العناصر نفسها؛ ولكن التناول مختلف وكذلك المضمون، كما أنّ هناك اختلافًا في ترتيب العناصر وموقعها(٣١).

ومن المحاولات الجادّة في وضع أول معجم عربي تاريخي - ولم يكتمل مشروعه - ما قام به المستشرق فيشر، الذي تبنّى عمله مجمع اللغة العربية في القاهرة، ولم يستطع أن ينشر من معجمه إلاّ مقدمة ونموذجًا صغيرًا، سبق للمؤلّف أن أعدهما(٣٢).

ذلك أنّ المستشرق الألماني فيشر (١٨٦٥-١٩٤٩م) فكّر في وضع معجم تاريخي للغة العربية، وضبط منهجه بقوله: «ومنتهى الكمال لمعجم عصري، أن يكون معجمًا تاريخيًّا، ويجب أن يحوي المعجم التاريخي كلّ كلمة تداولت في

---

(٣١) ينظر د. حلام الجيلالي، تقنيات التعريف في المعاجم العربية المعاصرة، ص:٣٤٤.

(٣٢) ينظر د.صافية زفنكي، المرجع السابق،ص:٧٩.

اللغة، فإنّ جميع الكلمات المتداولة في لغة ما، لها حقوق متساوية فيها، وفي أن تعرض وتستوضح أطوارها التاريخية في معجماتها»(٣٣).

٦ – طرائق التأثيل عند المعجميين العرب:

يعتمد المعجميون العرب طرقًا في تأثيل الكلمات، وهذا باتباعهم المنهج الآتي:

أ – ذكر الكلمة ثمّ اللسان الذي انحدرت منه، مع الإشارة إلى نطقها، ورسمها الإملائي ودلالاتها، والتغيّرات التي طرأت عليها؛ نحو (بهرج: الباطل وهو بالفارسية نبهره).

يمّ: البحر الذي لا يدرك قعره ولا شطّاه، وزعم بعضهم أنّها لغة سريانية، فعرّبته العرب وأصله يمّا)(٣٤).

ب – الإشارة إلى اللغة التي انحدر منها اللفظ فقط:مثل شطرنج:فارسي معرب.

ج – الإشارة إلى أنّ عجمة الكلمة غير مؤكّدة نحو:

الأسى :المشموم: أحسبه دخيلاً.

فردوس:البستان: قال الفراء: هو عربي، قال ابن سيده: الفردوس الوادي الخصيب عند العرب كالبستان، وهو بلسان الروم البستان.

ولا شكّ في أنّ المعجم العربي القديم قد اهتمّ قليلاً بموضوع التأثيل، إذ احتوى على إشارات وتلميحات، دون تتبّع أصل الكلمات وشرحها وتطوّر دلالاتها وبيان الأصول التي انحدرت منها.

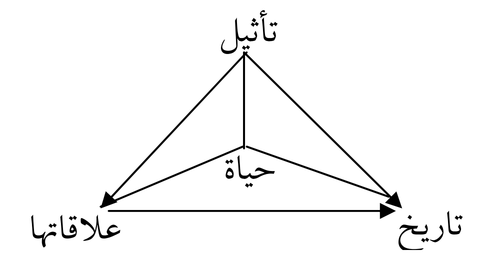
---

(٣٣) ينظر د.حلام الجيلالي، تقنيات التعريف في المعاجم العربية المعاصرة، ص:٣٤٤.

(٣٤) ينظر د.حلام الجيلالي، المرجع نفسه، ص:٣٣١.

منهجية دراسة التأثيل في ضوء تطوّر المدارس اللسانية وتعددها «تنوعت منهجية دراسته انطلاقًا من القوانين الصوتية والتمايز الدلالي للمفردات، والتحليل الداخلي للصيغ في صلب النظام اللساني، والخارجي في إطار الزمان والمكان والعلاقات الحضارية»(٣٥).

ولا ريب في أنّ تأثيل الكلمة يمثل قمّة هرم ثلاثي، حيث تمثل قاعدته تاريخ الكلمة وحياتها وعلاقتها.



ومن هنا يراعي التأثيل الجوانب الأساسية الآتية:

«أ – تحديد تاريخ النشأة الأولى للكلمة، حيث دخلت لسانًا من الألسن بشكل من الأشكال.

ب – تتبع حياتها للوقوف على ميلادها، وما طرأ عليها من تطوّر، وتغيّر من حيث الصوت والبنية والدلالة.

ج – إيجاد العلاقات التي تربط الأثل بالسابق واللاحق من الأشكال والدلالات في إطار النظام اللساني، وبما يشاكلها في الألسن الأخرى»(٣٦).

---

(٣٥) د.حلام الجيلالي ، تقنيات التعريف في المعاجم العربية المعاصرة، ص: ٣٢٨.

(٣٦) د.حلام الجيلالي، تقنيات التعريف في المعاجم العربية المعاصرة، ص:٣٢٨.

ولعلَّ ما سبق هو الذي أفضى بحلام الجيلالي إلى أن يخلص – انطلاقًا ممّا سبق – إلى أنّ هذه المعطيات توضّح أن بداية «المعلومات التي يمكن أن يوفرها المعجم اللغوي في المجال التأثيلي، تركّز على الأصل الذي انحدرت منه الكلمة الأثل، والشكل الذي جاءت عليه كتابةً ونطقًا ثم الدلالات وطبيعة التطوّرات التي رافقتها من خلال علاقتها في النظام اللساني بغيرها عبر الزمان»(٣٧).

ويعود ذلك إلى أنّ أي لسان يحتوي على كلمات «تشكل اللسان القومي، وترجع إلى قرون ضاربة في القدم، كما توجد كلمات دخيلة أو مقترضة ترجع إلى ألسن أخرى، وبين هذا وذاك توجد كلمات لا يمكن الوقوف على أصلها، إمّا لأنّها دخلت قبل ظهور الكتابة؛ وإمّا لأنّها فقدت مميزاتها، واكتسبت خصائص اللسان الذي انتمت إليه أو لأنّها ترجع إلى المشترك الإنساني»(٣٨) .

وأكّد الواقع أنّ اللسان العربي مقبل على مرحلة يحتاج فيها إلى توليد آلاف المفردات، واستعارة مئات المصطلحات العلمية والألفاظ الحضارية الدخيلة والمعرّبة لمسايرة التطوّر العلمي السريع والمذهل.

وحتى يتمكّن المعجم العربي من الحفاظ على أصالته العربية وتراثه المفرداتي، يحتاج إلى أن يجري تجديده سنويًّا وفق منهجيات وتقنيات حديثة ومتطوّرة، تسمح بتأثيل المداخل وتأريخ الدلالات، وتعريف المواد تعريفًا علميًّا دقيقًا، وتطعيمه بالرموز والمختصرات ليواكب مستجدات العصر، ويدخل زمن العولمة والاتصالات والتكنولوجيات والإعلاميات والقرن الجديد ممتلكًا

---

(٣٧) د.حلام الجيلالي، المرجع نفسه، ص:٣٢٨.

(٣٨) د.حلام الجيلالي، تقنيات التعريف في المعاجم العربية المعاصرة، ص:٣٢٩ .

أسباب الحياة، وقادرًا على الصمود أمام لغات العالم المعاصر بل ومنافستها[٣٩].

وفي الأخير، يمكن القول: إن موضوع التأثيل مجال واسع ومهمّ، فهو يكشف عن العلاقات بين الشعوب، واحتكاكها وربط الحضارات والأمم فيما بينها؛ ذلك أن اللّغات استفادت بعضها من بعض في مجال الألفاظ والدلالات؛ ممّا أدّى إلى رقي العقل البشري.

ولاشكّ في أنّ ذلك يمكن اعتباره مشروعًا علميًّا وحضاريًّا تعتمده المؤسّسات والهيئات والمختبرات العلمية لتعالجه معالجة دقيقة، فيفيد الأجيالَ في لغتها وثقافتها وتراثها ومستقبلها.

المصادر والمراجع

١ – أحمد عزوز، صناعة المعاجم العربية وآفاق تطوّرها، مجمع اللغة العربية بدمشق، مج٨٤.

٢ – أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان ودار الفكر، دمشق، ط:٢، سنة:١٩٩٩.

٣ – أحمد مختار عمر، صناعة المعجم الحديث،عالم الكتب،ط:٢،سنة:١٩٩٢.

٤ – البدراوي الزهران، المعجم العربي– تطور وتاريخ في ضوء نظريات علم الدلالة لدى المحدثين، دار الآفاق العربية،ط:١، القاهرة، سنة:٢٠٠٩.

٥ – تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، المغرب.

٦ – ابن جني، أبو عثمان، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى، بيروت.

٧– حازم علي كمال الدين، علم الدلالة المقارن، مكتبة الآداب، ط١: ٢٠٠٧، القاهرة.

٨ – حلام الجيلالي، تقنيات التعريف بالمعاجم العربية المعاصرة، منشورات اتحاد

(٣٩) ينظر د.حلام الجيلالي، الأثيل والدخيل في معاجم العربية، مجلة اللسان العربي، ص:١٣.

الكتاب العرب، دمشق، سنة:١٩٩٩.

٩ – السيوطي، المزهر، مكتب دار التراث، تحقيق وتعليق على الحواشي، محمد أحمد جاد المولى بك وآخران.مكتب دار التراث، المجلد الأول، ط:٣، القاهرة.

١٠ – شرح ديوان المتنبي، وضعه عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، لبنان، سنة:١٩٨٦.

١١ – صافية زفنكي، التطورات المعجمية والمعجمات اللغوية العامة العربية الحديثة، منشورات وزارة الثقافة في المنشورات العربية السورية، دمشق، سنة:٢٠٠٧.

١٢ – فندريس، اللغة، ترجمة أ. عبد الحميد الدواخلي ود. محمد القصاص، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، سنة:١٩٥٠.

١٣ – محمد كشاش، مقدمة شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل لشهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي، قدّم له وصحّحه، ووثّق نصوصه وشرح غريبه د. محمد كشاش، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، لبنان.ط:١، سنة: ١٩٩٨.

١٤ – محمد المبارك، فقه اللغة، دار الفكر،ط:٧، سنة:١٩٨١، سورية.

١٥ – ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت.ط:١، سنة:٢٠٠٠.

١٦- Le Petit Robert, rédaction rédigée par A.REY et J;REY-DEBOVE;Paris;١٩٩٢